باب الملك والطائر فَنْزَة

قالَ دَبْشليمُ الملِكُ لَبَيْدَبَا الفَيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ فاضْرِبْ لي مثَلَ أهْلِ التِّرَاتِ[1] الذِينَ لا بُدَّ لبعضِهِمْ منِ ٱتِّقاءِ بعْضٍ.

قالَ بَيْدبا: زعَمُوا أنَّ مَلكاً منْ مُلوكِ الهِنْدِ كانَ يُقالُ لهُ: يَرِيدُونَ، وكانَ لهُ طائرٌ يُقالُ لهُ: فَنْزَةَ، وكانَ لهُ فَرْخٌ، وكانَ هذا الطائرُ وفَرْخُهُ يَنْطِقانِ بأحْسَنِ مَنْطِقٍ وكانَ الملِكُ بهما مُعَجَباً فأمَر بهما أنْ يُجْعَلاَ عندَ امْرأتهِ وأمَرَها بالمُحافَظةِ عليْهِما، واتَّفَقَ أنَّ امْرأةَ الملِكِ ولَدَتْ غُلاماً فألِفَ الفَرْخُ الغُلامَ وكِلاهُما طِفْلاَنِ يَلْعَبانِ جَميعاً، وكانَ فَنزةُ يَذْهَبُ إلى الجبَلِ كلَّ يوْمٍ فيأتي بِفَاكهةٍ لا تُعْرَفُ فيُطْعِمُ ابنَ الملِكِ شَطْرَها[2] ويُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَها، فأسرَعَ ذلك في نَشأتِهما وشَبابِهما وبانَ عليْهِما أثَرُهُ عندَ الملِكِ فازْدَادَ لِفَنزَةَ إكراماً وتَعْظِيماً ومَحبَّةً، حتى إذا كانَ يوْمٌ منَ الأيَّامِ وفَنزَةُ غائبٌ في اجْتِناءِ الثَّمَرةِ وفَرْخهُ في حَجْرِ[3] الغُلامِ فَزَرَقَ في حُجْرِهِ فغَضِبَ الغُلامُ وأخَذ الفَرخَ فضَرَبَ بهِ الأرْضَ فماتَ.

ثمَّ إنَّ فَنزَةَ أقبَلَ فوَجَدَ فرْخَهُ مَقْتولاً فصاحَ وحَزِنَ وقال: قُبْحاً للْمُلوكِ الذينَ لاَ عَهْدَ لهمْ ولا وَفاءَ، ويْلٌ لمنِ ٱبْتُلِيَ بصُحْبةِ الملوكِ الذينَ لاَ حَمِيَّةَ لهمْ ولا حُرْمةَ[4] ولا يُحِبُّونَ أحداً ولا يَكْرُمُ عليهمْ إلاّ إذا طَمِعُوا فيما عندَهُ منْ غَناءٍ[5] وٱحْتاجُوا إلى ما عِنْدَهُ منْ عِلمٍ فيُكْرِمُونهُ لذلكَ، فإذا ظَفِرُوا

---

(١) التِّرات: جمع: التِّرةِ، وهي: الثأر.
(٢) شطرها: نصفها.
(٣) الحَجْر: الحضن.
(٤) حرمة: عهد.
(٥) الغَنَاء: النفع.

بحاجاتِهِمْ منهُ فلا وُدَّ ولا إخاءَ ولا إحْسانَ ولا غُفْرانَ ذنْب ولا مَعْرِفةَ حقٍّ، همُ الذينَ أمرُهمْ مَبْنيٌّ على الرِّياءِ والفُجورِ، وهمْ يَسْتَصغِرُونَ ما يَرْتكِبُونَهُ منْ عظيمِ الذُّنُوبِ، ويَسْتَعْظمُونَ اليَسيرَ إذا خُولِفَتْ فيهِ أهواؤُهمْ، ومنْهُمْ هذا الكَفُورُ[1] الذي لا رَحمةَ لهُ، الْغادِرُ بإلْفهِ وأخيهِ، ثمَّ وثَبَ في شِدَّةِ حَنَقِهِ على وجْهِ الغُلامِ ففَقأ عينَهُ. ثم طارَ فَوَقَعَ على شُرْفةِ المنزِلِ.

ثمَّ إنهُ بَلغ الملِكَ ذلكَ فَجزِعَ أشدَّ الجزَعِ ثمَّ طَمِعَ أنْ يَحْتالُ لهُ فوَقَفَ قريباً منْهُ وناداهُ وقالَ لهُ: إنكَ آمِنٌ فانزِلْ يا فنزَةَ. فقالَ لهُ: أيُّها الملِكُ إنَّ الْغادِرَ مأخُوذٌ بِغَدْرِهِ وإنهُ وإنْ أخطأهُ عاجلُ العقُوبةِ لمْ يُخْطِئْهُ الآجِلُ حتى إنهُ يُدْرِكُ الأَعْقابَ وأعْقابَ الأعْقابِ، وإنَّ ٱبنَكَ غَدَرَ بابْني فعَجَّلْتُ لهُ العُقوبةَ. قال الملِكُ: لعَمْري قدْ غدَرْنا بابْنِكَ فانتَقَمْتَ منّا فَليْسَ لكَ قِبَلَنا، وليْسَ لنا قِبَلَكَ وِتْرٌ[2] مَطلوبٌ فارْجعْ إلَيْنا آمناً. قال فنزَةُ: لسْتُ براجعٍ إلَيْكَ أبداً فإنَّ ذَوِي الرَّأيِ قدْ نهَوْا عنْ قُرْبِ المَوْتُورِ فإنهُ لا يَزيدُكَ لُطْفُ الحَقُودِ ولِينُهُ وتَكْرِمتُهُ إيَّاكَ إلا وَحْشةً منهُ وسوءَ ظنٍّ بهِ، فإنكَ لا تجِدُ للْحَقُودِ المَوْتُورِ أماناً هُوَ أوْثَقُ لكَ منَ الذُّعْرِ منهُ ولا أجْوَدُ منَ البُعْدِ عنهُ والاحترَاسُ منهُ أوْلَى.

وقدْ كانَ يُقالُ: إنَّ الْعاقلَ يَعُدُّ أبويْهِ أصدِقاءَ والإخوَةَ رُفَقاءَ والأزْواجَ أُلَفاءَ والْبنينَ ذِكْراً والْبناتِ خُصَماءَ والأقارِبَ غُرَماءَ ويَعُدُّ نفسَهُ فريداً، وأنا الفريدُ الوحيدُ الغرِيبُ الطَّرِيدُ قدْ تَزَوَّدْتُ منْ عِنْدِكُمْ منَ الحُزْنِ عِبْئاً ثقيلاً لا يَحْمِلُهُ مَعي أحدٌ، وأنا ذاهِبٌ فعليْكَ مِني السَّلاَمُ. قال الملكُ: إنكَ لوْ لمْ تكُنْ قدِ اجتَزَيْتَ منَّا فيما صَنَعْناهُ بكَ أو كانَ صَنيعُكَ بِنا منْ غير ابْتِدَاءٍ منَّا بالغَدْرِ كان الأمْرُ كما ذكَرْتَ. أمَا ونحنُ قدْ بَدأناكَ فما ذَنْبُكَ؟ وما الذِي

(١) الكَفُور: من يجحد النعمة.

(٢) وتر: ثأر.

يَمنعُكَ منَ الثِّقَةِ بِنا؟ هلُمَّ فارْجعْ فإنكَ آمِنٌ. قال فَنْزَةُ: أعلمُ أنَّ الأحْقادَ لها في القُلوبِ مَواقِعُ ممكَّنةٌ مُوجِعةٌ. فالألْسُنُ لا تَصْدُقُ في خَبرِها عنِ القُلوبِ، والقلْبُ أعدَلُ شَهادَةً على اللسانِ منَ اللّسانِ على القَلْبِ. وقدْ عَلِمْتُ أنَّ قلبي لا يَشْهَدُ لِسانِكَ ولا قَلْبُكَ للساني.

قال المِلِكُ: ألمْ تَعْلم أنَّ الضَّغائنَ والأحْقادَ تكونُ بينَ كثيرٍ منَ النّاسِ، فمَنْ كانَ ذا عقْلٍ كانَ على إماتَةِ الحِقْدِ أحْرَصَ منهُ على تَرْبيتِهِ. قال فَنْزَةُ: إنَّ ذلكَ لكما ذَكَرْتَ، ولكنْ ليْسَ ينْبغي لذِي الرَّأيِ معَ ذلكَ أن يَظُنَّ أنّ الموْتُورَ الحَقُودَ ناسٍ ما وُتِرَ بهِ ولا مَصرُوفٌ عنهُ، وذُو الرَّأيِ يَتخَوَّفُ المَكْرَ والخَدِيعةَ والحِيَلَ ويَعلمُ أنّ كثيراً منَ العدُوِّ لا يُسْتطاعُ بالشدَّةِ والمُكابرَةِ حتى يُصادَ بالرِّفْقِ والمُلاينَةِ كما يُصادُ الفيلُ الوَحشِيُّ بالفيلِ الدَّاجِنِ. قالَ الملكُ: إنّ العاقلَ الكريمَ لا يَترُكُ إلْفَهُ ولا يَقطَعُ إخوانَهُ ولا يُضيِّعُ الحِفاظَ وإنْ هوَ خافَ على نفْسهِ، حتى إنَّ هذا الخُلُقَ يكونُ في أوْضَعِ الدَّوابِّ مَنزلةً، فقدْ عَلِمْتَ أنّ اللَّعّابِينَ يَلعَبُونَ بالكلاّبِ ثمَّ يَذْبَحُونها ويأكُلونَها ويَرَى الكلْبُ الذي قدْ أَلِفَهُمْ ذلكَ فلا يَدعُوهُ إلى مُفارقَتِهِمْ ولا يَمنَعُه منْ إلْفَتِه إيَّاهُمْ.

قال فَنْزَةُ: إنّ الأحْقادَ مَخُوفَةٌ حيْثُ كانتْ فأخْوَفُها وأشدُّها ما كانَ في أنفُسِ المُلوكِ، فإنَّ المَلوكَ يَدِينُونَ بالانْتِقامِ، وَيَرَوْنَ الدَّرَكَ والطلَبَ بالوِتْرِ مَكْرُمَةً وفَخْراً وإنَّ العاقلَ لا يَغتَرُّ بسكونِ الحِقْدِ إذا سَكَنَ، فإنما مثَلُ الحِقْدِ في القلْبِ إذا لمْ يَجِدْ مُحرِّكاً مثَلُ الجَمْرِ المكنونِ ما لمْ يَجِدْ حَطباً، فليْسَ يَنفَكُّ الحِقْدُ مُتطلِّعاً إلى العِللِ[1] كما تَبْتغي النّارُ الحطبَ، فإذا وَجَدَ عِلةً استَعَرَ اسْتِعارَ النار فلا يُطْفئُهُ حُسْنُ كلامٍ ولا لِينٌ ولا خُضُوعٌ ولا تَضرُّعٌ ولا مُصانَعةٌ[2] ولا شيءٌ دونَ تَلَفِ الأنفُسِ، معَ أنهُ رُبَّ واتِرٍ يَطْمَعُ في مُراجعةِ

(١) العلل: الأسباب.
(٢) المصانعة: المداراة والرشوة.

المَوْتُورِ لِما يَرْجُو أنْ يَقْدِرَ عليهِ منَ النفْعِ لهُ والدَّفْعِ عنهُ، ولكني أنا أضعَفُ منْ أنْ أقْدِرَ على شيءٍ يَذْهَبُ بهِ ما في نَفْسِكَ ولوْ كانتْ نفسُكَ مُنْطويةً لي على ما تقولُ ما كانَ ذلكَ عنِّي مُغْنياً، ولا أزالُ في خوْفٍ ووَحْشَةٍ وسوءِ ظنٍّ ما اصْطَحَبْنا، فليسَ الرَّأيُ بيْنِي وبيْنَكَ إلاّ الفِرَاقَ وأنا أقْرَأ عليْكَ السلام.

قال المِلِكُ: لقدْ عَلِمْتُ أنهُ لا يَستطيعُ أحدٌ لأحدٍ ضَرًّا ولا نَفْعاً، وأنهُ لا شيءَ منَ الأشْياءِ صَغيراً ولا كَبيراً يُصِيبُ أحداً إلاّ بقَضاءِ وقَدَرٍ مَعلومٍ، وكما أنّ خَلْقَ ما يُخْلَقُ ووِلادةَ ما يُولَدُ وبَقاءَ ما يَبْقَى ليْسَ إلى الخلائقِ منهُ شيءٌ. كذلكَ فَناءُ ما يَفْنَى وهَلاكُ ما يَهْلكُ، وليْسَ لكَ في الذِي صَنَعْتَ بابْني ذَنْبٌ ولا لابْني فِيما صَنَعَ بابْنِكَ ذنْبٌ، إنما كانَ ذلكَ كلُّهُ قَدَراً مَقْدُوراً وكِلاَنا لهُ عِلةٌ فلا نُؤَاخَذْ بما أتانا بهِ القَدَرُ. قال فَنَزَةُ: إنّ القَدَرَ لكَما ذَكَرْتَ لكنْ لا يَمَنَعُ ذلكَ الحازِمَ منْ تَوَقِّي المَخاوِفِ والاحتِرَاسِ منَ المَكارِه. ولكنهُ يَجْمَعُ تَصْدِيقاً بالقَدَرِ وأخْذاً بالحَزْمِ والقوَّةِ، وأنا أعلمُ أنكَ تُكلّمُني بغيرِ ما في نفْسِكَ، والأمرُ بيْني وبينَكَ غيرُ صَغيرٍ لأنّ ٱبنَكَ قَتَلَ ٱبْني وأنا فَقأتُ عيْنَ ابْنِكَ، وأنتَ تُرِيدُ أنْ تَشْتَفيَ بقَتْلي وتَخْتِلَني[1] عنْ نفْسِي والنفْسُ تَأبَى الموْتَ. وقدْ كانَ يُقالُ: الفاقةُ بَلاءٌ، والحُزْن بَلاءٌ، وقُرْبُ العدُوِّ بَلاءٌ، وفِراقُ الأحِبّةِ بَلاءٌ، والسُّقْمُ بَلاءٌ، والهَرَمُ بَلاءٌ، ورأسُ البَلايا كلها الموْتُ.

وليْسَ أحَدٌ بأعلمَ بما في نفْسِ المُوجَعِ الحزِينِ ممَّنْ ذاقَ مِثْلَ ما بهِ، فأنا بما في نفْسِي عالِمٌ بما في نفْسِكَ للْمَثَلِ الذِي عِنْدِي منْ ذلكَ ولا خَيرَ لي في صُحْبتِكَ، فإنكَ لنْ تَتذَكَّرَ صَنِيعي بٱبْنِكَ ولنْ أتذَكَّرَ صَنيعَ ابْنِكَ بِٱبْني إلاَّ أحدَثَ ذلكَ لِقُلوبِنا تَغْييراً. قالَ المِلِكُ: لا خَيرَ في مَنْ لا يَسْتطيعُ الإعْرَاضَ عمَّا في نفْسهِ حتى يَنْساهُ ويُهْملَهُ فلا يَذْكُرَ منهُ شيئاً ولا يكونَ لهُ

(١) تختلني: الختل: الخداع.

في نفْسهِ مَوْقِعٌ. قال فنزَةُ: إن الرَّجلَ الذي في باطنِ قدمه قَرْحَةٌ إنْ هوَ حَرَصَ على المشْيِ لا بُدَّ أنْ تُنْكأ[١] قَرْحتُهُ، والرَّجُلُ الأرْمدَ العيْنِ إذا استَقْبَلَ بها الرِّيحَ تَعرَّضَ لأنْ تزْدادَ رَمَداً، وكذلكَ الواتِرُ إذا دَنا من الموْتُورِ فقدْ عَرَّضَ نفْسَه للْهلاكِ. ولا ينبغي لِصاحبِ الدُّنْيا إلاَّ تَوَقِّي المَهالِكِ والمَتالِفِ وتقْدِيرُ الأمورِ وقلةُ الاتِّكالِ على الحَوْلِ[٢] والقوَّةِ وقلةُ الاغترَارِ بمن لا يأمَنْ.

«فإنهُ مَنِ اتكلَ على قوَّتِه فحمَلهُ ذلكَ على أنْ يَسْلُكَ الطَّريقَ المَخُوفَ قدْ سعَى في حَتْفِ نفسِهِ، ومنْ لا يُقدِّرُ لِطاقتهِ طَعامَهُ وشرابَهُ وحَمَّلَ نفْسَهُ ما لا تُطِيقُ ولا تَحْمِلُ فقدْ قَتَلَ نفْسَهُ، ومنْ لمْ يُقَدِّرْ لُقْمتَهُ وعظَّمَها فوْقَ ما يَسَعُ فُوهُ فرُبما غَصَّ بها فماتَ، ومنِ اغْترَّ بكلامِ عدُوِّهِ وانخَدَعَ لهُ وضَيَّعَ الحَزْمَ فهوَ أعْدَى لنفسهِ منْ عدُوِّه، وليْسَ لأحدِ النظَرُ في القَدَرِ الذِي لا يَدْرِي ما يَأتيهِ منهُ ولا ما يُصْرَفُ عنهُ ولكنْ عليهِ العمَلُ بالحَزْمِ والأخْذُ بالقُوَّةِ ومُحاسبةُ نفسهِ في ذلكَ. والعاقِلُ لا يَثِقُ بأحدٍ ما اسْتطاعَ ولا يُقيمُ على خَوْفٍ وهوَ يَجِدُ عنهُ مَذْهَباً وأنا كثيرُ المذَاهِبِ وأرْجُو أَلاَّ أذْهَبَ وجْهاً إلاَّ أصَبْتُ فيهِ ما يُغْنيني.

«فإنّ خِلاَلاً خَمساً مَنْ تَزوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ في كلِّ وجْهٍ وآنَسْنَهُ في كلِّ غُرْبةٍ وقَرَّبْنَ لهُ البَعِيدَ وأكسَبْنَهُ المَعاشَ والإخْوَانَ. أُولاهُنَّ: كَفُّ الأذَى. والثّانيةُ: حسْنُ الأدَبِ. والثَّالثةُ: مُجانبةُ الرِّيَبِ. والرَّابعةُ: كَرَمُ الخُلُقِ. والخامسةُ: النُّبْلُ[٣] في العمَلِ. وإذا خافَ الإنسانُ على نَفْسهِ شيئاً طابَتْ نفسُهُ عنِ المالِ والأَهْلِ والوَلَدِ والوَطنِ فإنهُ يَرْجُو الخَلَفَ منْ ذلكَ كلِّهِ ولا يَرْجُو عنِ

(١) تنكأ قرحته: تقشرها قبل أن تبرأ.

(٢) الحَوْل: بمعنى القوة.

(٣) النبل: الفضيلة.

النّفْسِ خَلَفاً، وشَرُّ المالِ مالا إنْفاقَ منهُ، وشَرُّ الأزْواجِ التي لا تُؤَاتي بَعلَها[١] وشَرُّ الوَلدِ العاصِي العَاقُّ والِدَيْهِ وشرُّ الإخوانِ الخاذَلُ لأخيهِ عنْدَ النَّكبَاتِ والشَّدائدِ، وشرُّ المُلوكِ الذِي يَخافُهُ البرِيءُ ولا يُواظِبُ على حِفْظِ أهلِ مَملكتهِ، وشَرُّ البلادِ بِلاَدٌ لا خِصْبَ فيها ولا أمْنَ، وإنهُ لا أمْنَ لي عنْدَكَ أيُّها الملِكُ ولا طُمأنِينةَ لي في جِوَارِكَ. ثمَّ وَدَّعَ الملِكَ وطارَ.

فهذَا مَثَلُ ذَوِي الأوْتارِ الذينَ لا يَنْبغي لبَعْضِهِمْ أنْ يَثِقَ ببَعْضٍ.

(١) تؤاتي: توافق.